محكم

العقائد والطقوس المسيحيّة في التفاسير القرآنيّة:

"التحرير والتنوير" لابن عاشور أنموذجا

(هيمنة المرجعية الإسلامية وغياب المرجعية المسيحية)

نجم الدين النفاتي

باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخّص البحث:

(تبقى العلاقة بين الأديان رهينة المقاربات والتمثّلات التي ترسمها كلّ جماعة مؤمنة حول الآخر المغاير دينيّا، فالمسلم عادة ما يعرف الديانات الأخرى (اليهوديّة والمسيحيّة) من خلال الصورة التي يقدّمها النصّ القرآنيّ، فيكتفي في أقصى حالات اجتهاده عند تبرير مقولات النصّ وتفسيرها. وقد حاولنا في هذا المقال البحث في صورة الديانة المسيّحيّة (من خلال طقوسها) كما يقدّمها أحد أعلام الفكر الدينيّ في تونس، وهومن الّذين ينسب إليهم التحرّر والاجتهاد في إصلاح الفكر. في محاولة لمساءلة فكره، ومعرفة كيف أن الرجل بقي حبيس الثوابت النصيّة، ولم يحاول فهم الديانة الأخرى في سياقها الثقافيّ الخاص استنادا لمقولة إنّ التعارض بين الحقائق الدينيّة ليس تعارضا حقيقيّا، لأنّ كلّ حقيقة تشكّلت داخل مناخ ثقافيّ وبئة حضاريّة منفصلة ومنغلقة عن باقي الحضارات، أي جاءت هذه الحقائق لتلبّي حاجات روحيّة خاصّة وتجيب عن تساؤلات وتفعلات محصورة داخل اطر محدّدة.)

مقـدّمـة:

لكلّ ديانة لبناتها وركائزها العَقَديّة التي تقوم عليها، لذلك تظلّ كلّ دراسة أو بحث فيها محاولة لفهم طبيعة العلاقة بين هذه الركائز وما يمكن أن تعكسه من فلسفة أو رؤية غالبًا ما تكون كليّة أو شاملة للوجود. وما يجب التسليم به هو أنّ لهذه العقائد أسرارًا وخفايا لا تبوح بها إلاّ لصاحب الديانة وللراغب في ذلك، وهو ما ييسّر تقييّم كل قراءة لهذه الديانة، خاصّة إذا كان الدارس من خارج الدائرة الإيمانيّة. وعادة ما نصنّف المواقف في مثل هذه الحالات إلى موقف أولٍ يرومُ فيه الباحث معرفة ما قد تحويه هذه الديانة من أسرار تساعد على دراسة الإنسان، وتقييم وعيه، فيكتفي فيه بمحاولة دراسة هذه الديانة دراسة علميّة ترتكز على توخي الموضوعيّة في أقصى حالاتها. أمّا الموقف الثاني، فيحاول صاحبه البحث في هذه الديانة من وجهة نظر خاصة، عادة ما تكون مشحونة بغايات خفيّة، مثل السعي إلى محاولة استنطاق مستندات هذه الديانة، وجعلها لا تستوفي حقيقتها إلاّ على ضوء ديانته الخاصّة. ويظلّ الفرق بين الموقفين أن الأول يكون تغطية لتلك الديانة، في حين يكون الثاني تعمية لها. من هذا المنطلق سنحاول معرفة طبيعة موقف ابن عاشور من أهمّ القضايا في الديانة المسيحيّة ومدى وعيه بها والآليات التي تحكّمت في تفكيره أثناء حديثه عنها.

إذا كان المسيحيّ يؤمن بأنّ رسالة الله الأزليّة وغير المخلوقة "صارت بشرًا وسكنت بيننا" في شخص يسوع، بمعنى أنّ المسيح لا ينقل كتابًا "موحى" بل يجسّد وحي الله، وبأنّ الله أرسل ابنه الوحيد الذي ولد من مريم ثمّ عاش بين الناس، ثمّ صلب وتألّم، ثم مات وقام من بين الأموات وكلّ ذلك تمّ من أجل البشر، فما هو موقف ابن عاشور من هذه الركائز الإيمانية؟ وهل أولاها الاهتمام اللازم؟ وهل نجد له حديثًا عن سريّ العماد والقربان المقدّس؛ أي القدّاس الإلهي؟ وهل تعامل مع هذه المقولات المسيحيّة مستعينًا بالمناهج الحديثة وفق المعطيات العلميّة لزمانه؟ وهل حاول البحث في العوامل المؤثرة في نشوء هذه المعتقدات، أم أنّه ظلّ حبيس القراءة الإسلاميّة التي تتخذ النصّ ركيزة من خلاله يحاكم معتقد الآخر المغاير دينيًا؟ وهل صلب المسيح في عرفة؟ وما هو مفهومه لمسألة الرفع التي تحدّثت عنها العقيدة الإسلامية؟ وما هو موقفه من مقولة الخلاص؟

1/ مسألة الصلب؛ إثبات الرؤية الإسلامية ونفي الرؤية المسيحية:

مثلت نهاية المسيح* بؤرة خلاف بين المسيحيين والمسلمين، فإذا كان التصوّر المسيحيّ يرى أنّ هذه النهاية كانت على الصليب فإنّ القراءة الإسلامية تفنّد ذلك، ولكلّ شق مستنداته في ذلك. فلمقولة الصلب في العقيدة المسيحيّة أهميّتها، إذ لا يمكننا الحديث عنها دون الوقوف عند هذه اللبنة الأساس، ويجوز القول بأنّه لا يمكن فهم المقولات الأخرى في غياب هذه المقولة

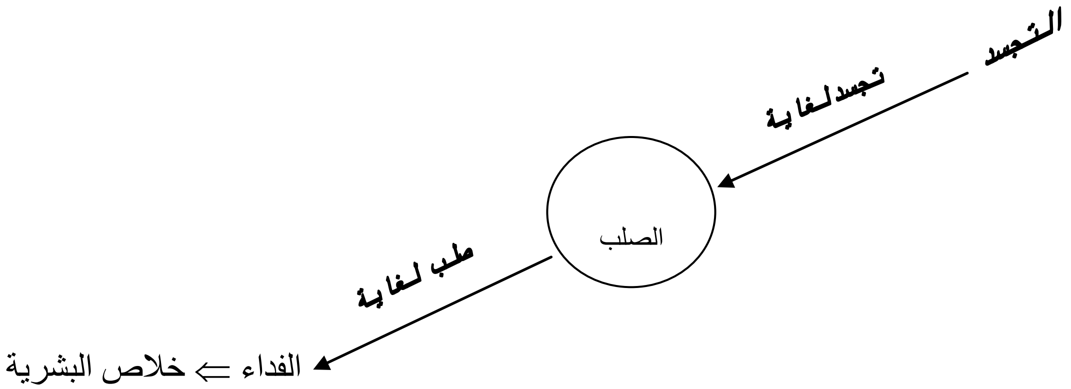

بلغ الاختلاف حول هذه المقولة بين المسيحيين والمسلمين أشدّه، لدرجة أن "دارس الأديان يجد نفسه أمام موقفين على طرفي نقيض يعسر التوفيق بينهما."[1]

ولمقولة موت المسيح على الصليب فلسفتها في الفكر المسيحي ولنفيها داخل الفكر الإسلامي مبرراته وفلسفته، وما يستوقفنا في الأمر هو وجهة نظر ابن عاشور ومدى اطلاعه على وجهة النظر المسيحية، ونوعية الحجج والأدلّة التي يقدّمها لدحضها. هل كانت حججًا عقلية، بمعنى أنّها تستند إلى العقل، أم أنها حجج نقلية منطلقها النصّ؟ وهل درس ابن عاشور مسألة الصلب على ضوء المنهج المقارنيّ، أم أنّه اكتفى بتتبّع آراء المسلمين وإملاءات النصّ؟ وهل نلمس في فكر ابن عاشور اهتمامًا بمسألة الصلب بخلاف ما أبداه المفكّرون المسلمون من عدم اهتمام؟ إذ إنّه "من اليسير أن نسجّل أنّ هذا الغرض لم يكن محلّ عناية كبيرة من قبل المفكرين المسلمين "[2]. وما هي رواية ابن عاشور لنهاية عيسى؟ وهل سعى إلى حسم الخلاف بين الشقّين في هذه المسألة؟ عديدة هي الأسئلة التي تحضر الدّارس للفكر الإسلامي في علاقته بطبيعة رؤيته لديانة الآخر المغاير دينيًا وخاصّة في هذه النقطة، أي مسألة الصلب؟

* يجب أن نشير إلى أن المقصود بكلمة "نهاية" النهاية في التاريخ وذلك تجنبًا لما قد توقعنا فيه هذه الكلمة من مزالق.

[1]- الشرفي عبد المجيد، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى**، ص 378

[2]- الشرفي عبد المجيد، **الفكر الإسلامي في الرد عنه النصارى**، ص 378

الملاحظ أنّ رجل الدين المسلم ينطلق في حكمه على مسألة الصلب من كتابه المقدّس، أي "القرآن الكريم"، فينفي ما نفاه ويثبت ما أثبته، لذلك فإنّ معرفة طبيعة موقف ابن عاشور من مسألة نهاية المسيح تضطرنا إلى ضرورة معرفة موقفه وفهمه للآيات الواردة في النصّ القرآني، التي حوت حديثًا في الموضوع، ومن ذلك الآيات التالية:

"وَبِكُفْرِهُم وَقَوْلِهُم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهم إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ ابنَ مريمَ رَسُولَ الله."

(النساء4/156-157)

"وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم. وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظنّ وما قتلوه يقينًا بل رفعه الله إليه."

(النســـاء 4/156)

"وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ الله إليهِ وَكَانَ الله عزيزًا حكيمًا"

(النســـاء 4/158)

"والسّلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا"

(مريــــم 9/33)

"وإذا قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا"

(آل عمران 3/55)

"وكنت عليهم شهيدًا مَا دُمْت فيهم فَلَمَّا تَوفيتَنِي كُنْتَ أنت الرّقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد"

(المائـدة 6/117)

يستنتج المتأمّل في هذه الآيات نفي مسألتي الصلب والقتل "وما قتلوه وما صلبوه"، وتقديم بديل يتمثّل في مسألة الشبه "ولكن شبّه لهم"، والرّفع "بل رفعه الله" ونجد مقابل ذلك القول "إنّي متوفّيك ورافعك إليّ" والقول "فلمّا توفّيتني". يوحي كلا القولين بوقوع حدث الوفاة، وأمام ما قد يحدثه هذا الأمر من قلق والتباس لدينا سنحاول الوقوف عند رأي ابن عاشور من ذلك. هل اكتفى في الحكم على مسألة الصلب بهذه الآيات دون الرجوع إلى المصادر المسيحية أم أنّه راوح في ذلك بين المصدرين؛ أي الإسلام والمسيحيّة، وحاول إعمال العقل في تجاوز الاختلاف القائم بين القراءتين باعتماد المنهج المقارن؟

يرى ابن عاشور أنّ حادثة صلب المسيح كانت محض زعم ووهم قال بها اليهود، إذ قال: "والمشهور في الاستعمال أنّ الصلب هو أن يوثق المعدود للقتل على خشبة بحيث لا يستطيع التحرّك، ثمّ يطعن بالرمح أو يرمى بسهم، وكذلك كانوا يزعمون أنّ عيسى صلب ثمّ طعن برمح في قلبه"[3] وأمام هذا النفي يقدم بديلاً لسدّ الثغرة في مسألة الذي صلب عوضًا عن المسيح، فيقول: "وأصل ظنّهم أنّهم قتلوه، أنّهم توهموا أنّهم قتلوه، وهي شبهة أوهمت اليهود أنّهم قتلوا المسيح، وهي ما رأوه ظاهرًا من وقوع قتل وصلب على ذات يعتقدونها ذات المسيح."[4]

يعترف ابن عاشور من خلال ذلك بوقوع حادثة صلب، ولكن مع اختلاف المصلوب، فحادثة الصلب وقعت فعلاً، ومات المصلوب على خشبة الصليب، ولكن المصلوب لم يكن المسيح وإنّما كانت: "ذات يعتقدونها ذات المسيح"، ويكون بذلك قد وضع المتقبل داخل أزمة فهذا التبرير قد يقبله رجل الدين ولكن رجل العلم لا يقبل ذلك بسهولة. فما هي أبعاد القول بالشبه؟ وهل يقبل ذو عقل مثل هذا التفسير؟ فكيف لإله معروف لدى العقلية العربيّة الإسلاميّة بالعدل والرحمة القبول أنّ يؤخذ الفرد بذنب الآخر؟ وهل يقتنع المتقبل اليوم وقد تسلحّ عقله بدرجة من الوعي العلميّ أن يكون المصلوب شخصًا آخر غير المسيح لسبب واحد هو أنّه حمل شبهه؟ هذا إضافة إلى عدّة أسئلة يثيرها هذا التفسير منها الأسئلة التالية:

- من هذا الذي وقع عليه شبه المسيح؟ وهل كان شبهًا اختياريًا أم اضطراريًا؟

- لماذا تمّ اختيار حل الشبه دون سواه من الحلول؟ هل كان الله عاجزًا عن التدخل وإنقاذ المسيح بطريقة أخرى غير هذه؟

- إذا كان هنالك من حمل شبه المسيح وصلب فعلاً، ألا يمكن أن يكون ذلك مبررًا لدى العقلية اليهودية بأنّها فعلاً قتلت المسيح، وأن يقول المسيحيون بحقيقة الصلب؟

---

[3]- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج 6، ص 20

[4]- ابن عاشور محمد الطاهر، المصدر السابق، ج 6، ص ص 20-21

1- إشكالية الشبه وموقف ابن عاشور منها:

حاول ابن عاشور تقديم أكثر من رأي في مسألة الشبه:

1- يحتمل أن يكون معناه: أن اليهود الذين زعموا قتلهم المسيح في زمانهم قد شبّه لهم مشبه بالمسيح فقتلوه ونجّا الله المسيح من إهانة القتل."[5]

2- ويحتمل أن يكون المعنى: ولكن شبه لليهود الأولين والآخرين خبر صلب المسيح أي اشتبه عليهم الكذب بالصدق، فيكون من باب قول العرب خيّل إليك، واختلط على فلان. وليس ثمة شبيه بعيسى ولكن الكذب في خبره شبيه بالصدق، أي أن كبارهم اختلقوه لهم ليبردوا غليلهم من الحنق على عيسى إذ جاء بإبطال ضلالتهم تضمين فعل شبه معنى "صنع" أي صنع الأحبار هذا الخبر لأجل إدخال الشبهة على عامتهم.[6]

3- وفي الأخبار أنّ "يهوذا الأسخريوطي" أحد أصحاب المسيح كان قد ضلّ ونافق، وهو الذي وشى بعيسى، عليه السلام، وهو الذي ألقى الله عليه شبه عيسى، وأنّه الذي صلب، وهذا أصله في إنجيل برنابي أحد تلاميذ الحواريين. وهذا يلائم الاحتمال الأول.[7]

4- ويقال: إنّ "بيلاطس" والي فلسطين سئل في رومة عن قضية قتل عيسى وصلبه فأجاب بأنّه لا علم له بشيء من هذه القضية، فتأيّد بذلك اضطراب الناس في وقوع قتله وصلبه، ولم يقع، وإنّما اختلق اليهود خبره وهذا يلائم الاحتمال الثاني.[8]

وينهي ابن عاشور سلسلة الاحتمالات بإقرار فكرة أصّر على وجوب الاعتقاد بها، وهي "أنّ المسيح لم يقتل ولم يصلب وأنّ الله رفعه إليه ونجاه من طالبيه"[9] وكأن هذه هي المنطلق والمنتهى في الاعتقاد في مسألة صلب المسيح، فأمامها تظلّ جميع الاحتمالات ضعيفة، وهو أمر بدهَيّ داخل المنظومة العقَدية. فرجل الدين يحاول دائمًا تطويع الحقائق الأخرى وليّ أعناقها لتكون خادمة ذلولاً للحقيقة العقَدية التي يؤمن بها. ولكن لماذا هذا الإصرار على نفي حادثة الصلب عن المسيح؟ وهل يعود ذلك إلى خلفيات عقَدية إسلاميّة تجعل من

---

[5]- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 6، ص 21
[6]- م. ن، ج 6، ص 21
[7]- م. ن، ج 6، ص 21
[8]- م. ن، ج6، ص ص 21-22
[9]- م. ن، ج6، ص 22

مقولاتها نفي هذه الحادثة؟ وهل يعود ذلك إلى غايات استراتيجية تبنى على خلفيّة ضرورة الاختلاف عن الآخر؟ وهل تدخل عملية نفي الصلب في حيز التشكيك في عقيدة الآخر؟ وماذا لو اعترف بالصلب؟

2- خلفيات نفي الصلب:

إنّ نفي حادثة الصلب لها ما يبررها داخل المنظومة العقَديّة الإسلاميّة، ولذلك فإن ابن عاشور حين أقرّ نفيها خضع في واقع الأمر لإملاءات واقع معرفيّ له أسسه المعرفيّة وقواعده التي لا يمكن إلاّ التفكير تحت غطائها والانضواء ضمن سلطتها، فهو في هذا المستوى يعكس وفاءه للمنظومة الإبستيميّة المعرفيّة الإسلاميّة التي تعرف بخضوعها الدائم لسلطة التقليد والاشتغال في فلك النصّ وعدم المراهنة على فرصة التجاوز والهدم وإعادة التأسيس. فلا سلطة للعقل سوى الانخراط ضمن سياسة التسليم والوثوقيّة. ومن هذه الثوابت مثلاً التي تبناها الفضاء العقَدي الإسلامي، والتي لم يحد عنها ابن عاشور، فكرة أنّ المسيح لم يصلب، وهي من الأفكار الثابتة داخل العقيدة الإسلاميّة ولم تتغيّر رغم تغيّر العصور وما رافقها من تغيّر في العقليات. أمّا عن أسباب ذلك فقد يعود الأمر إلى الخضوع لما جاء في النصّ القرآنيّ من نفي لهذه المسألة. أمّا السبب الذي استند إليه ابن عاشور فيتجلى في قوله: "ولكن لو سلّط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له".[10]

فالعقلية الإسلاميّة وكما ذهب إلى ذلك الأستاذ حمادي المسعودي "بُنيت على رفض فكرة إلحاق الأذى برسل الله، فالقاعدة تقول بأنّ كلّ رسول هو في حماية الله الذي أرسله ما دام في خدمته، ولا يعقل أن يتخلى الله عن رسله أثناء المحنة. فرفض الصلب له فلسفته الخاصّة داخل المنظومة العقدية الإسلاميّة... فليس من شأن المرسل أن يهزم أو تنزل به المذلة في القصص الديني الإسلامي إذ يتدخل العجيب لتكريمه وتنجيته"[11] ولكن ما مدى منطقية هذه الحجة في نفي صلب المسيح؟

تتطلب الإجابة عن هذا السؤال ضرورة الوقوف عند التصوّر المسيحيّ لحادثة صلب المسيح، فمن نافل القول بأن للصلب أهمّيته داخل العقيدة المسيحيّة، لذلك فإنّ ما تعرض له المسيح أثناء محاكمته يدخل ضمن خطّة إلهيّة معلنة منذ البدء، فالمسيح تجسّد ليصلب وصلب ليكفّر عن الخطيئة الكبرى. فكان الصلب فعلاً إراديًّا، على خلاف ما يذهب إليه ابن عاشور من أنّ فيه إهانة له. وهذا الاختلاف في المنطلقات والتصوّرات هو السبب المباشر وراء نفيه لعملية الصلب. فالعقلية التي يشتغل ضمنها ابن عاشور مبنية على التصوّر الذي سبق أن ذكرناه، وهو تدخل الله في التاريخ من أجل إنقاذ رسله والأمثلة على ذلك كثيرة:

---

[10]- م. ن، ج3، ص 259.

[11] حمادي المسعودي: فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، عمل مرقون بكلية الآداب بالقيروان، ص387

إبراهيم ◄ نجّاه من النار

نـوح ◄ نجّاه من الطوفان

يونس ◄ نجّاه من الغرق

موسى ◄ نجّاه من فرعون وجنوده

عيسى ◄ نجّاه من الصلب

لكن إذا وضعنا الحجة التي قدمها صاحبنا، وهي: "لو سلط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له" على محك النقد نلاحظ أنها حجة تفي بحاجة رجل الدين، ولكنها لا تفي الباحث في الأديان حاجته. يعود ذلك للاختلاف البيّن في تقييم الحدث، فالمسيحي لا يرى حرجًا وإهانة في ما تعرض له المسيح من تعذيب وإهانة وألم وموت، لأنّ ذلك يندرج ضمن رؤية خاصة وتأويل خاص لهذه الحادثة. فالمسيحي كلما قدم صورة آلام المسيح مضى قدمًا في تصوير عقيدة الفداء، وكانت الدعوة ضمنيًا إلى ضرورة محبّة المسيح الذي بذل نفسه من أجل البشرية: "والغرض من هذا الموت هو أن يأخذ يسوع مكاننا كخطاة أمام الأب، أي أن يصبح هو نفسه الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا، فعلى الصليب أخذ المسيح مركز الإنسان الخاطئ المتمرد والمجرم والعاصي والمبتعد عن الله... بهذا الغرض عينه جرّب، تألّم، بكى، عرف العطش والجوع والفراق... بل أنه تحمل الموت وقبله طوعًا لأجل البشرية كلها."[12]

وبهذا نلاحظ أن لكل فريق منطلقاته في تحديد موقفه من عقيدة الصلب، ولكن الأجدر بالملاحظة هو أن رفض الصلب الذي أقرّه ابن عاشور يمكن القول بمشروعيته، شرط أن يكون المسيح المتحدث عنه هو المسيح الذي ترسمه المدونة العقَدية الإسلامية.

فقد أفرغت الشخصيات من انتماءاتها المسيحية، وقدمت في صورة إسلامية؛ أي تمت أسلمتها. فالمسيح الذي لم يصلب هو المسيح المسلم. أما المسيح بصورته المسيحية، فإنه قد صلب حسب عقيدة أصحاب ديانته، وهو ما يعكس مدى أهمية زاوية النظر التي ينطلق منها في تحديد موقف من ديانة ما.

فلو طلب من ابن عاشور مثلاً أو من أي رجل دين مسلم أن يتخلى عن مواقفه العقَدية لفترة من الزمن، وأن ينظر أثناء ذلك إلى الآخر من داخل الدائرة المعرفية التي ينتمي إليها لاقتنع ببساطة بمدى مشروعية

[12]- الخضري، **تاريخ الفكر المسيحي: يسوع عبر الأجيال**، القاهرة، دار الثقافة، 1981، مج 1، ص ص 346-347

منظومته اللاهوتية، وكيف أن خطة إنكار بعض المعتقدات التي تتأسس عليها ديانته هي في واقع الأمر لا مبرر لها سوى سياسة التعصب المنتهجة في النظر إلى الآخر المغاير دينيًا، وهي من السياسات التي تكاد تكون ثابتة في مستوى العلاقة بين الأديان، وكأننا بالقاعدة تقول إن الطعن في مقولات الآخر ومحاولة تقديم البديل ضرورة من أجل قيام الأديان، ويدرج مشروعه ضمن خطة العمل "بقدر ما أنجح في نفي الآخر أنجح في ضمان بقائي."

ويحكم بذلك على الآخر المغاير دينيًا انطلاقًا من مصادرة مفادها: إما أن تتخلى عن إيمانك وتؤمن بما أؤمن به، وإما فأنت كافر وضال ووجب إقصاؤك، وكل ذلك يعود بصفة مباشرة أو غير مباشرة إلى مقولة امتلاك الحقيقة ووحدتها وثبوتها في حين أن الفلسفة الحديثة أقرت نسبيتها وتغيرها. فكيف لعقلية تعيش في القرن العشرين أن تظل خارج نسقه الفكري الذي زعزعت فيه الثوابت ووقف فيه العقل البشري أمام حقيقة ضرورة تغير آليات اشتغاله والارتقاء إلى مرتبة النقد والتغيير. فإن كانت المنظومات العقائدية التي تشكلت في زمن ماض تعبر عن إجابات لإحراجات ما، وتعبر عن رؤية للعالم تطلّبتها الفترة التاريخية تلك، فإنها تظلّ حسب رأينا خاضعة للتبدل وإعادة التشكيل.

فما معنى أن يظل رجل الدين في القرن العشرين متمثلاً في شخص ابن عاشور رافضًا لعقيدة الصلب، ولا يبني رفضه على أسس علمية نقدية، كأن يبحث مثلاً في الجوانب الأسطورية للحدث، أو أن يبحث في مبررات الاختلاف بين الديانتين في المسألة؟ هل يعود ذلك إلى إفلاس فكري مصدره قلة الاطلاع على الدراسات الحديثة؟ وهل يعود إلى عجز عن تجاوز الخطوط الحمراء التي ترسمها سلطة النص المقدس؟ وهل يعكس ذلك محدودية الرقعة المعرفية التي يمكن للعقل الاشتغال داخلها، فنتحدث عندها عن المعقول بمعنى المقيد الذي لا حرية له؟ وأين تكمن العلة؟ هل هي في النص أم في قراءة النص؟

قد نحاول الإجابة، رغم تسليمنا بأن الإشكال يظل مطروحًا أمام مفكرينا وباحثينا، فالخطأ لا يعود إلى النص قدر ما يعود أساسًا إلى مسألة الوعي بالنص. ونركز في إجابتنا على مقولة "الوعي بالنص" لا على مقولة القراءة لما لذلك من أهمية.

ويتطلب الوعي بالنص منا الجرأة على اقتحام عالمه، وإخراجه من قدسيته ومحاولة فهمه في ضوء التاريخ والمعطيات العلمية الحديثة، وأن نبدي استعدادًا لقبول النقد. ولا يعتبر ذلك إنقاصًا من قيمته، قدر ما يجعلنا ننخرط ضمن ثورة الفكر الحديث، فلماذا نظل نفكر في رحاب النص فنحاول الاشتغال في دائرة إملاءاته فننفي ما ينفيه ونثبت ما يثبته؟ ولماذا لا نغير نهج تفكيرنا؟ فعوض التفكير تحت سلطة النص لماذا لا نفكر في النص؟

نخلص بعد دراستنا لموقف ابن عاشور من مسألة الصلب إلى عدة نتائج لعل أهمها أنّه لم يبدِ أية محاولة لتجاوز القديم والثورة على السائد، استجابة لرهانات الحيز الزمني الذي يعيش داخله، وإنما يكتفي بترديد الموقف القديم نفسه، وظل حبيس القراءة الإسلامية. ونلاحظ أيضًا أن نفيه لحادثة الصلب كان رهين ما ورد في النص، وكأنّ ذلك قد أغناه عن البحث في ما سواه، مما جعل تفكيره خارجًا عن السياق المعرفي الحديث.

2/ إشكالية التثليث: صورة الله في الإسلام مقياس لدحض صورته في المسيحيّة:

تعتبر مسألة التثليث من أبرز نقاط الخلاف والاختلاف بين أصحاب الديانتين المسيحيّة والإسلام، فقد اتّخذها المسلمون حجّة وذريعة لمجادلة المسيحيين ورميهم بالشرك والضلال، فإذا كان المسيحيّ يعلن إيمانه في المفهوم التالي "باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد" فإن المسلم يعلنه من خلال المركب اللغوي التالي: "قل هو الله أحد، الله الصمد" والغاية التي يرومها كلّ طرف إعلان التوحيد، ولكن هذين المفهومين فرّقا بين الفريقين أكثر مما جمعا "فحول هذين المفهومين للتوحيد الإلهي أثيرت المجادلات العنيفة بين المسلمين والمسيحيّين، بل باسم هذا المفهوم أو ذاك قامت حروب وأزهقت نفوس"[13] وهو أمر يجعلنا نقرّ أنّ السبب المباشر لهذا التوتر في العلاقة يعود أساسًا إلى طبيعة تصوّر كلّ طرف لصورة الله. ويعد هذا التصوّر في نهاية الأمر إفرازًا من إفرازات المنظومة الثقافية التي نشأ داخلها. وهذا السبب كفيل وحده بأن يجعل القارئ الفطن لا يسعى إلى محاكمة هذه التصوّرات فيحكم عليها بالخطأ أو بالصواب قدر ما يجب أن يسعى إلى تفسيرها والبحث في العوامل التي أثرت في عقليّة المؤمن كي يتبنى هذا التصوّر أو ذاك. كما يجب أن نشير إلى أنّه لا يمكن فهم كلّ تصوّر من هذه التصوّرات إلا بالتعامل معه داخل الدائرة الإيمانيّة التي ينتمي إليها. لأنّ كلّ جهد يبذل دون هذا الشرط يجعل صاحبه يحيد عن الفهم الصحيح ويتورط في عملية تشويهٍ للمفهوم. وبناءً على ذلك، سوف نحاول دراسة موقف ابن عاشور من مسألة التثليث المسيحيّة، مستأنسين في ذلك بالأسئلة التالية:

كيف فهم ابن عاشور مسألة "التثليث"؟ وهل قبل التصوّر المسيحيّ للألوهية؟ وهل حاول تفسير الظاهرة أم أنّه اكتفى بالحكم عليها؟ وهل تعامل معها في مستواها السطحيّ، أي أنّه اكتفى بالوقوف عند النتائج دون الأسباب، أم أنّه حاول الذهاب إلى المستوى العميق فبحث في الأسباب وبرر النتائج؟ وما هي مرجعياته في

---

[13]- عبد المجيد الشرفي، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى**، ص 197

تحديد موقفه من التصوّر المسيحيّ للألوهيّة؟ هل فهم الاختلاف بين التصوّرين الإسلامي والمسيحيّ على أساس الاختلاف في المنطلقات والمرجعيات أم أنّه فهمه على أساس ثنائية الخطأ والصواب؟ وهل اعتمد التاريخيّ أم اعتمد المقدّس؟

2-1- من الاختلاف في المفهوم إلى الاختلاف في الدلالة:

يبدو موقف ابن عاشور من مسألة التثليث واضحًا منذ البداية، منذ أقرّ بشرية عيسى وحدد علاقته بالألوهية على أساس أنها تتمحور في العبوديّة والرسالة دون غيرهما. وهو بذلك لم يخرج عن الدائرة الإيمانيّة الإسلامية التّي تقرّ استحالة إمكانيّة وجود علاقة أنطولوجيّة بين الله والإنسان، أو بين المفارق والمنزلة البشرية. فالإيمان بأن يكون أحد إلهًا وإنسانًا في الوقت نفسه هو عين الشرك؛ أي أنّه الكبيرة التي لا تغتفر وذنب في حق الله لا مجال فيه للتسامح.[14] لذلك ظلت فكرة "التثليث" المسيحيّة لدى رجل الدين المسلم مرفوضة، فالله في عرفه "أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد"[15] وليس من الغريب أن ينخرط ابن عاشور ضمن الدائرة نفسها، وأن يكون أمينًا على المخزون العقدي، وأن لا يتجاوز السائد دون اعتبار مقياس الخطأ أو الصواب.

فالتثليث عنده: "أصل في عقيدة النصارى كلّهم، ولكنّهم مختلفون في كيفيته، ونشأ من اعتقاد قدماء الإلهيين من نصارى اليونان أنّ الله "ثالوث" أي أنّه جوهر واحد، وهذا الجوهر مجموع ثلاثة أقانيم، واحدها أقنوم، وعبّروا عن مجموع الأقانيم الثلاثة بعبارة "أب، ابن، روح قدس" وهذه الأقانيم يتفرع بعضها عن بعض. فالأقنوم الأول أقنوم الذات أو الوجود القديمين وهو الأب وهو أصل الموجودات، والأقنوم الثاني أقنوم العلم وهو الابن وهو دون الأقنوم الأول ومنه كان تدبير جميع القوى العقليّة، وأقنوم الحياة ومنها كان إيجاد عالم المحسوسات."[16]

بهذا يمكننا القول إن ابن عاشور كان مطّلعًا على طبيعة تصّور المسيحيين للألوهيّة ومفهوم التوحيد عندهم، ولكنّه مع ذلك يظلّ حبيس الموقف الإسلامي العام الذي يرى في هذا "الثالوث" شركًا. ويتجلّى ذلك في قوله "فاعتقدوا أنّ الأرباب ثلاثة وهذا أصل النصرانيّة وقاربوا عقيدة الشرك"[17] ويعود ذلك أساسًا إلى حكم

---

[14]- عبد المجيد الشرفي، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى**، ص 192

[15]- القرآن الكريم، 114: 1 – 3

[16]- ابن عاشور محمد الطاهر، م. ن، ج 6، ص 55

[17]- المصدر نفسه، ج 6، ص 55

بالظاهر على المقولة وتعامل معها في المستوى السطحيّ. وكأنّ فكره لم يستوعب المعادلة 3 = 1 أو 1 = 3 لأنّه تعوّد على أنّ 1 = 1.

فإذا أنعمنا النظر في طبيعة التصوّر المسيحيّ لمقولة التوحيد، وجدنا أنّ المسألة على خلاف ما ذهب إليه ابن عاشور، فالمسيحيون يؤمنون بوحدانية الله، ففي البسملة اعتراف صريح بذلك "باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين" ولكن ما يجب أن نشير إليه أنّ طبيعة العلاقة بين هذه المكوّنات للألوهيّة هي التي من شأنها تحديد مدى فهم مقولة التثليث، فالمسيحيّ يرى أنّ التثليث في كيان الله نفسه لا من خارجه وفيه تفسير منزل لحياة الله. [18] فالله الأب والكلمة والروح القدس جوهر واحد هو الله تعالى لا إله إلاّ هو.[19] فالمعادلة المسيحيّة تبنى على أساس أن الثالوث يساوي واحدًا في عمقه وجوهره، على خلاف ما ذهب إليه ابن عاشور أن الثالوث يساوي ثلاثة.

وقد علّق بعض المسيحيين على هذه المسألة، أي ما يمكن أن يقع فيه البعض من سوء فهم "للتثليث" والتعامل معها على أساس أنّ كلّ عنصر مستقل عن العنصر الآخر، ونذكر على سبيل المثال غريغوري النياسي [20] الذي أشار إلى أنّ جوهر الطبيعة الإلهيّة لا اسم له. ولا يمكن الحديث عنه، وكلمات "الآب والابن والروح القدس" هي مجرّد كلمات نستخدمها لنتحدث عن القدرات التي عرّف الله بها عن نفسه، مع ذلك فهذه الكلمات ذات قيمة رمزيّة، لأنّها تترجم الحقيقة التي لا توصف بصور يمكننا فهمها. ويقرّ أنّه لا توجد ثلاثة آلهة وأنّه لا ينبغي أن يفكّر المرء أنّ الله شقّ نفسه إلى ثلاثة أجزاء، فتلك فكرة غروتسك "زخرفة" وفي الحقيقة تجديف، فقد عبّر الله عن ذاته كليًّا في كلّ هذه التعبيرات الثلاثة عندما أراد أن يكشف عن ذاته للعالم.[21] ويضيف في السياق نفسه أنّه لا ينبغي أن يفسر الثالوث بطريقة واقعيّة [22] الأمر الّذي تورّط فيه جلّ ناقدي التثليث المسيحيّ ومن بينهم ابن عاشور.

ومن الملاحظات البارزة التي تشد انتباهنا أن ابن عاشور يقرّ بمقولة التوحيد المسيحيّة ويعرضها كما أقرّها أصحابها في مرحلة أولى ثمّ ينفيها، ويبدي فهمًا مناقضًا لما صرّح به. فيتجاوز التوحيد للقول بالشرك. [23]

[18]- الأستاذ الحداد، **مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحيّ**، ص 280

[19]- الأستاذ الحداد، م.ن، ص 281

[20]- غريغوري النياسي: أسقف نيسا Nyssa (335 م 391 م)

[21]- كارين آرمسترونغ، **الله والإنسان على امتداد 4000 سنة من ابراهيم الخليل حتّى العصر الحاضر**، ترجمة محمد الجورا، سوريا، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص 128

[22]- كارين آرمسترونغ، م. ن، ص 129

[23]- الشرك "يعني دائما الضدّ الصريح للإيمان بوحدانية الله"، دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، مادة "شرك"، مج 13 ص 215

وهذه الظاهرة لا يمكن أن تفسّر إلاّ بثنائية المعرفيّ والعقديّ. فهو يبدي اطلاعًا في المستوى المعرفيّ، ولكنّه في المستوى العقديّ يقرّ بخلاف ما يعلم، وهو سلوك رجل الدين ولا غرابة في ذلك. فالحديث عن الحقيقة في دستوره يبنى على قانون التسليم والوثوقيّة دون العقل أو الشك، فالسلطان الأول والأخير لكلّ ما هو عقدّي دون سواه، وكلّ محاولة للخروج عن هذه السبيل تنعت بالكفر والردّة. فالمنظومة العقديّة عبارة عن مدينة لها أنهجها وأزقتها وأبنيتها العتيقة التي لا تقبل تغيرًا، ولا ترحب بالمهندس الجديد الذي تحدوه عزيمة تغيير الديكور والإضاءة، وتدفعه الرغبة في الحداثة إلى هدم القديم وتأسيس الجديد الذي يتماشى مع معطيات المناخ الجديدة. وقد كُتب على بابها "آمن ولا تفكّر" ونقشت معها بعض الشروط مثل "يحرّم استعمال المطرقة والمقص".

فابن عاشور، رغم معرفته بطبيعة التصوّر المسيحيّ لمقولة التوحيد لم يتجرأ على تجاوز مقولة الشرك التي يرمي بها المسلمون المسيحيين، ولم يقرّ بسوء فهم المسلمين لمقولة "التثليث" بل عمل على تكريس ما هو سائد. والأمر بدَهيّ في نهاية المطاف إذا ما علمنا أنّ المفكر رجل دين يخضع لإملاءات العقيدة وشروطها. وهو ما يجعل فكره فكرًا استسلاميًا مقيّدًا، مقابل ما يجب أن يكون عليه الفكر الحرّ الإيجابي الذي يتصدى للحقائق بالتحليل والتفسير والتقويم ويسعى إلى مساندة كلّ بديل معرفيّ وعلميّ ومحاربة الجمود والخمول.

2-2- دوافع القول بعقيدة التثليث في المسيحيّة:

يردّ ابن عاشور مقولة "التثليث" المسيحيّة إلى أنّ المسيحيين "أرادوا أن يتأوّلوا ما يقع في الإنجيل من صفات الله، فسمّوا أقنوم الذات بالأب، وأقنوم العلم بالابن، وأقنوم الحياة بالروح القدس، لأنّ الإنجيل أطلق اسم الأب على الله، وأطلق اسم الابن على المسيح رسوله، وأطلق الروح القدس على ما به كوّن المسيح في بطن مريم... فلما اشتبهت عليهم المعاني أخذوا بالظواهر فاعتقدوا أن الأرباب ثلاثة."[24]

ولم يكن لابن عاشور السبق في هذا المأخذ بل أننا نجد القول بأن النصارى أخذوا بظاهر الإنجيل مثارة عند المسلمين منذ القرون الأولى.[25] وهو رأي لا يجانب الصواب، رغم أنّه لا يعتبر القول الفصل بل هنالك دوافع أخرى لم يتطرق إليها. فما يعضد قوله بأن المسيحيين قد أخذوا بظاهر الإنجيل ما نجده في الأناجيل من مقاطع تؤكّد فكرة التماهي والحلول بين الذات العليا والمسيح، إلى حدّ عدم التقاطع والتمايز بين اللاهوت والناسوت، فقد ورد في إنجيل يوحنا "أنا والآب واحد"[26] لذلك فمن آمن بالمسيح فقد آمن بالله الآب. و"لكن إن

[24]- ابن عاشور، م.ن، ج 6، ص 55

[25]- لمزيد الإطلاع راجع الشرفي عبد المجيد، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى**، فصل: التثليث، ص ص 201 – 202

[26]- إنجيل يوحنا، 10: 30

كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أنّ الآب فيّ وأنا فيه"[27] وورد في الإنجيل نفسه قول يسوع: "الذي رآني فقد رأى الآب فكيف تقول أنت: أرنا الآب ألست تؤمن أنّي أنا في الآب والآب فيّ. الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال صدّقوني أنّي في الآب والآب فيّ."[28] وورد في نهاية إنجيل متّى ما أمر به المسيح تلاميذه بعد تجليه لهم "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمد وهم باسم الآب والابن والروح القدسّ." ويجب أن نشير إلى أنّ فكرة التثليث لم ترد في الأناجيل إلاّ في هذه المقاطع الأخيرة، ويشير إلى ذلك معجم اللاهوت المسيحيّ: "إن العهد الجديد لم يشتمل على كلمة "ثالوث" ولا ما يعادلها من كلمات، وأبرز مثال على ذلك ما ورد في رسالة كورنثوس الثانية: "ولتكن نعمه ربّنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم" (13: 13). ويمنح التعميد أيضًا "باسم الآب والابن والروح القدس"(متى 28: 19)[29]

ومع ذلك، فإنّ عقيدة التثليث يمكن اعتبارها عقيدة طارئة على المسيحيّة، فهي لم تتبلور تاريخيًا إلاّ في القرن الرابع الميلادي، أي مع مجمع نيقية. وقد عقد هذا المجمع ردًّا على القول بالتوحيد الذي تزعمه أريوس، وقد عُقد بأمر من الإمبراطور قسطنطين الكبير سنة 325 م واتخذ فيه قرار القول بألوهية المسيح، وتمّ فيه اختيار النصوص المقدسة التي لا تتعارض وقرار المجمع. ونستطيع القول إنّ التثليث لم يكتمل تمامًا في هذا المجمع "أُلّه الأب والابن. أمّا الروح القدس فقد أُلّه في مجمع لاحق هو مجمع القسطنطينية سنة 381 م"[30]. وبمجموع قرارات هذين المجمعين اكتملت عقيدة التثليث.

ولكن هل يمكن أن نقول إنّ الأمر يقف عند هذه الحدود الطافحة على السطح مثل مسألة المستندات النصيّة ومراحل تبني المعتقد عبر انعقاد المجامع؟ إذ يمكن أن تكون عقيدة التثليث هذه راجعة إلى بعض الخلفيات التاريخية السابقة لهذه النصوص وللمسيحيّة ذاتها. فالديانات الوثنية عرفت مقولة التثليث، وقد أرجع بعض الباحثين عقيدة التثليث المسيحيّة إلى تأثر المسيحيّة بتلك الديانات. "وكتب أفلاطون قبل المسيح بأربعة قرون بشرح عقيدة التثليث فأسهب واستخدم لذلك ألفاظًا هي نظائر لتلك في العهد الجديد نذكر منها:

Foagthon	◄	أي الإله الأعظم أو الأب
Logos	◄	الكلمة

---

[27]- إنجيل يوحنا، 10: 38

[28]- إنجيل يوحنا، 10: 9-11

[29]- Dictionnaire de la thélogie chrétienne: Encyclopoedia universalis Albin Michel. Paris. 1998. page 858

[30]- لمزيد الاطلاع على هذه المجامع يمكن العودة إلى كتاب "مدخل إلى تاريخ المسيحية" للأستاذ حسن القرواشي.

Psyche ◄ النفس أو الروح القدس[31]

هذا إضافة إلى تعدّد مقولة الثالوث الإلهي في الديانات القديمة مثال الثالوث المصري:

* أوزيريس ◄ الأب
* أيزيس ◄ الأم
* حورس ◄ الابن

ومن هذا الثالوث اقتبس المسيحيون ثالوثهم، مع نفي لعنصر الأم وإحلال محلّه عضوًا غير ملموس هو الروح القدس.[32]

ونخلص إلى أنّ تعامل ابن عاشور مع مقولة "التثليث" المسيحية ظلّ تعاملاً تحكمه الإملاءات العقدية وعصبيّة رجل الدين الذي يتملكه هاجس امتلاك الحقيقة. فكان في مجمله تعاملاً من خارج الدائرة الإيمانيّة المسيحيّة، وهو منبع الأزمة حسب رأينا، فلكي نفهم معتقد الآخر لا يمكننا إلاّ أن نتخلى عن اعتقادنا ظرفيًا، ونحاول أن ننخرط داخل تجربته الدينيّة، وأن نبحث عن الخيوط الخفية التي تربط معتقداته وطقوسه فيكون بذلك الاقتناع. وما نخلص إليه هو الاختلاف في مفهوم "التثليث" بين ما يراه المسيحيّ ويعتقد به ويجعله مطمئنًا لعقيدة التوحيد، وما يرى فيه ابن عاشور شركًا لا علاقة له بالتوحيد والتنزيه، ويعود ذلك إلى أنة لكلّ طرف مرجعياته ومنطلقاته. فابن عاشور يحاكم تصوّر الآخر من خلفية ما يحمله هو عن صورة الله في الثقافة العربية الإسلاميّة، متجاهلاً بذلك حق الآخر في الاختلاف ما دامت الدائرة الثقافية التي ينتمي إليها مختلفة عن تلك التي ينتمي إليها هو، فالمعتقد لا يتشكل من فراغ بل هو وليد عدّة عوامل ثقافية وتاريخيّة تساهم في بلورته وبروزه وكلّ قراءة كي تكون موضوعيّة وعلميّة يجب أن تدرس المعتقد داخل تربته وأن تبحث له عما يبرر وجوده. لا ما يجب أن يكون عليه. "والتثليث بوصفه عقيدة دينيّة لا يختلف فيها المسيحيون طوال التاريخ، لا من الشرق ولا من الغرب. فكان الأولى بالمسلمين أن يفهموا مضامينها أو يتركوها وشأنها لا يتدخلون فيما لا يفهمون ولا ينكرون على المسيحيين كونهم موحّدين (Monothéistes) ما دام هؤلاء يقولون على أنفسهم بأنّهم موحدون".[33]

---

[31]- ناصف عصام الدين حفني، **المسيح في مفهوم معاصر** بيروت، دار الطليعة، ط 1، 1979، ص ص 56-57

[32]- ناصف عصام الدين حنفي، م. ن، ص 56

[33]- حسن سعيد جالو، المسلمون بين الحاجة إلى الحوار مع الذات ومع الآخر، **مجلة الحياة الثقافية**، السنة 30 العدد 161 جانفي 2005، ص 34

3/ القـــيامة: انتفت بانتفاء عملية الصلب

كلّ ديانة شبيهة برقعة الشطرنج التي تتواصل عناصرها فيما بينها اتّصالا محكما، فلا يمكن الحديث عن اللعبة إلاّ متى توفرت كلّ العناصر دون استثناء، فمجرّد غياب أحدها من شأنه إبطالها. والأمر لا يختلف كثيرا أثناء حديثنا عن الديانة المسيحيّة حسب رؤية ابن عاشور. فبعد نفي عقيدة الصلب هل يجوز الحديث عن بقيّة العناصر العقائدية وبالتحديد "القيامة"؟

3-1- القيامة وأهميتها في المسيحيّة:

يعتقد المسيحيون بصلب المسيح وقيامته من بين الأموات في اليوم الثالث من صلبه، بل إنّ بعضهم جعلها أساس الإيمان، ونذكر ما قاله بولس في أوّل رسالة له إلى كورنثوس(15، 17): "إن لم يكن المسيح قد بعث، فإيماننا لا سبيل له"، إضافة إلى ما في القيامة من رمز الانتصار على الموت المرتبط أساسًا بالخطيئة الأولى، فالمسيح بقيامته انتصر على سلطان الموت: "ولن يكون للموت عليه من سلطان"[34] وقد أعطى بولس القيامة تفسيرًا أخرويًا، فهو قد شبّه المسيح بآدم: "إن المسيح قد قام بين الأموات وهو بكر الأموات، فقد أتى الموت على يد الإنسان، وعلى يد إنسان تكون قيامة الأموات، وكما يموت جميع الناس في آدم فكذلك سيحيون في المسيح"[35] وتتجلّى هذه الأهميّة أيضًا في أن جميع الأناجيل قد ذكرتها وتحدّثت عنها:

(1) إنجيل متّى:

"وبعد السبت عند الفجر أو الأسبوع جاءت مريم المجدلية ومريم الأخرى لتنظرا القبر... وإذا زلزلة عظيمة حدثت، لأن ملاك الرب نزل من السماء وجاء ودحرج الحجر عند الباب... فأجاب الملاك وقال للمرأتين: "لا تخافا أنتما. فإنّي أعلم أنّكم تطلبون يسوع المصلوب... ليس هو هنا، لأنّه قام كما قال... إنّه قام من الأموات، ها هو يستبقكم إلى الجليل".[36]

[34]- رسالته إلى رومة 6: 9
[35]- كورنثش الأولى 25: 20 – 23
[36]- إنجيل متى، 28: 1-10

(2) إنجيل مرقس:

"ولمّا دخلن القبر رأين شابًا جالسًا عن اليمين لابسًا حلّة بيضاء فاندهشن، فقال لهنّ لا تندهشن أنتنّ تطلبن يسوع الناصري المصلوب... لقد قام... ليس هو ها هنا... هوذا الموضع الذي وضعوه فيه، لكن اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس: "إنّه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه كما قال لكم".[37]

(3) إنجيل لوقا:

"ثم في أوّل الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهن أناس، فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر. فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع، وفيما محتارات في ذلك إذ رجلان وقفا بثياب براقة وإذ كنّ خائفات... قالا لهنّ: لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات؟ ليس هو هنا لكنّه قام".[38]

(4) إنجيل يوحنا:

"وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر، فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحد عند الرأس، والآخر عند الرجلين، حيث كان جسد يسوع موضوعًا... ولمّا قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفًا ولم تعلم أنّه يسوع... قال لها لا تلمسيني لأنّي لم أصعد بعد إلى أبي...".[39]

2-3- لماذا غاب الحديث عن القيامة مع ابن عاشور؟

من نافل القول إن إقصاء عقيدة الصلب تتبعه آليًا عملية إقصاء معتقد القيامة، فإذا كان المسيح في عرف ابن عاشور لم يمت ولم يصلب فإنّ الحديث عن عقيدة القيامة لا محلّ له. وبذلك نلاحظ كيف أنّ العلاقة بين العناصر العقدية داخل المنظومة الدينية علاقة وطيدة الصلة، بل إنّ الواحد منها يكون شرط وجود الآخر، وهو ما يعكس مدى الترابط بين عناصر الرؤية الدينيّة المسيحيّة، ولكن هذا لا يعني تبرير غياب عنصر القيامة في قراءة ابن عاشور، بل إن في ذلك غضّ الطرف عن مسألة من أهمّ المسائل داخل العقيدة المسيحيّة، وهو ما من شأنه أن يجعل هذه الرؤية رؤية قاصرة تعيق مسألة فهم الآخر أكثر مما تساعد على فهمه وفهم معتقده.

[37]- إنجيل مرقس، 16: 5-7

[38]- إنجيل لوقا، 24: 1- 6

[39]- إنجيل يوحنا، 20: 11 – 17

4/ الأســرار: غياب ما يجب أن يكون حاضرًا:

لكلّ ديانة طقوسها التي ترد مباشرة بعد العقائد. لتمثل الجانب العملي داخل الدائرة الإيمانية، والمسيحية لم تحد عن ذلك، فكانت لها طقوسها الأسرارية التي هي بمثابة تحصين للدين الجديد من كل الاجتهادات الذاتية التي قد تحيد عما ارتآه المسيحيون واعتبروه الحقيقة.[40] وهذه الأسرار لا تضيف شيئًا إلى جوهر الإيمان، لأنها تعبر فقط بطريقة عملية عن شهادة المؤمن المسيحي بأنّ عيسى ابن الله قد صلب وقام، وينحصر دورها في كونها تبرز المسار الذي ينبغي أن يسلكه السالك عمليًا، وعبرها يمكن الحكم على مدى استيعاب المؤمن للمسيحيّة وحسن نيته. وليس السر في نظر المسيحيين أمرًا خفيًا يفوق العقل، ولا بد للمؤمن أن يذعن له إذعانًا أعمى، وإنما هو جوهر الأشياء الباطني الذي يفوق الفهم السطحي، وهو دعوة مستمرة للتعمق أكثر فأكثر في الأشياء، قصد تجاوز العقلانية السطحية التي تكتفي بشيء ضئيل من طاقات العقل والنفاذ إلى لب الحقيقة.

4-1- العماد*

أ- مفهومه:

العماد هو أول عمل لأعمال الله الخلاصية[41] ينخرط به المؤمن في الجماعة المسيحية ويلتزم بأداء رسالة الكنيسة والشهادة.[42] ويعتبره المسيحي سرًا فيه وضع الغسل بالماء باسم الأب والابن والروح القدس، وعلامة وختمًا للتطعيم في المسيح ونوال عهد النعمة والمعاهدة على أن يكون المسيحي للرب.[43]

ب- مستلزماته:

كان العماد في البداية أمرًا بسيطًا يقوم على التغطيس الكلي في الماء (أعمال الرسل 8: 38) باعتبار أنّ الماء يطهر رمزيًا من النجاسة، ويؤهل صاحبه للانخراط في المسيحية، وإذا تعذر التغطيس يرش الماء على الرأس. وقد وضع له المسيحيون شروطًا حتى يتسنى للمعمّد الانخراط السليم في الجماعة المؤمنة وقد حددت في كتاب شرح أصول الإيمان[44] كما يلي:

---

[40]- حسن القرواشي، **مدخل إلى تاريخ المسيحية**، ص 51

* يجب أن نشير الى أنّه سبق أن تناولنا هذه المسألة أثناء اشتغالنا على عنصر الأعلام. صورة يوحنا المعمدان.

[41]- حسن القرواشي، **مدخل الى تاريخ المسيحية**، ص 52

[42]- حسن القرواشي، **مدخل الى تاريخ المسيحية**، ص 52

[43]- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، **شرح أصول الإيمان**، دار الجيل للطباعة، ط4، ص ص 483-484

[44]- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، المصدر نفسه، ص 484

* ضرورة اتصال ماء المعمودية بالجسد.

* النطق بالكلمات التي أمر بها المسيح "أعمّد باسم الأب والابن والروح القدس".

* ممارستها بروح التعبد باعتبار كونها خدمة دينية.

ج- غاياته:

لكلّ طقس من الطقوس داخل المنظومة الدينية غايات ترجى منه، فالتعميد يعني انخراط المهتدي في الجماعة المسيحية، وعقده لروابط روحية أسرارية، بينه وبين المسيح من جهة، وبين المسيحيين الآخرين من جهة أخرى، إذ يصبح شريكًا باطنيًا للمسيح ومتحدًا في الآن نفسه مع المسيحيين في وحدة المسيح ذاته[45] إضافة إلى:

* الدلالة على كفاية دم المسيح ليغفر جرم الخطيئة.

* أن يكون ختمًا لبركات الخلاص للذين يقبلونها بالإيمان (رومة 4.. 11)

* أن تكون شعارًا لولاء المعتمد وإيمانه بالمسيح (غل 3. 27. رومة. 4.6)

* أن يكون علامة حسية بها يتميّز أتباع المسيح عن سائر البشر.[46]

د- أهميته:

يرى القديس بولس أنّ العماد الممنوح باسم المسيح (1 كورنتوس 1: 13) يجعل المسيحيّ متحدا بموت الفادي ودفنه وقيامه (رومة 6:6) لينخرط في الحياة الأبدية في المسيح الذي أصبح حمل الله الحقيقي. عبر تحول باطني جذري يؤدي إلى خلع الإنسان العتيق وموته وارتداء الإنسان الجديد (رومة 6:6). "فدون العماد لا يتجدد أو يخلص أحد... فالعمودية واسطة فعالة في إيصال النعمة الإلاهية إلى قلب من يتعمد"[47]. فالإنسان في نَظر المسيحيّ ميت في الخطايا وفي غلف الجسم. وعبر العماد تقع قيامته. على غرار قيامة المسيح ليحيا

[45]- حسن القرواشي،المرجع نفسه، ص 53

[46]- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، **شرح أصول الإيمان**، ص 484

[47]- المرجع نفسه، ص 484

في الحق ويدخل في ملكوت الله بفضل هبة الروح (2 كورنتوس 1: 22) لذلك اعتبر العماد جسر العبور من الظلمات إلى النور (افسس 1: 13).

هـ- غياب الحديث عن المعمودية مع ابن عاشور:

نظرًا إلى ما تحظى به المعمودية من مكانة داخل الدائرة الإيمانية المسيحية، فإن عدم ذكرها وإيلائها ما تستحق من عناية يعتبر نقيصة لا يمكن قبولها، وهو ما وقع فيه ابن عاشور إذ إننا لا نلفي له حديثًا حول هذا السر، ويكون بذلك الأمر مدعاة للسؤال: لماذا تغافل عن المعمودية؟

قد يعود إهمال ابن عاشور لمسألة المعمودية لعدة اعتبارات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- أنّ المعمودية لا تعتبر من المسائل الجدلية بين الإسلام والمسيحية شأن التثليث والصلب.
- أنّ القرآن الكريم لم يرد فيه ذكر المسألة فيضطره ذلك لتهميشها وعدم البحث فيها، خاصة أن العلاقة بينه وبين النص علاقة خضوع واستسلام.

وكان من الواجب أن يثير ابن عاشور هذه المسالة وأن تحظى بالدراسة والتعليق لاعتبار ما فيها من تقارب بين الديانتين، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار عنصر الماء وما يحمله من رمزية القضاء على الدنس، فبفضله يتحول المؤمن من عالم الدنس إلى عالم الطهارة، هذا إضافة إلى أهميته في الدخول للديانة.

فالإنسان ليدخل في الإسلام يجب أن يتبع المراحل التالية:

1) أن يعلن الشهادة "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".
2) أن يغتسل ويسمّي العملية الغسل وتكون باستعمال عنصر الماء.

ولكي يدخل في المسيحيّة يجب عليه اتباع المراحل التالية:

1) أن يغطس المعمد في الماء.
2) أن يذكر الكلمات التي أمر بها المسيح "أعمد باسم الأب والابن والروح القدس".

2-4- العشاء الرباني:

أ- مفهومه:

العشاء الرباني سرّ يدل على موت المسيح بإعطاء خبز وخمر وقبولهما حسب رسم المسيح، والقابلون باستحقاق يتناولون جسده ودمه مع جميع فوائده ليس تناولاً جسميًا أو جسديًا بل تناولاً روحيًا بالإيمان، وذلك لقوتهم الروحي ونموهم في النعمة.[48] ويحاط هذا العشاء بهالة من التقديس لأنّ المؤمن يكون في نظرهم أمام الله بالعقل.[49]

ب- أغراضه:

1- تذكير المؤمنين بموت المسيح.

2- حملهم على التبشير بموته إلى أن يجيء.

3- ليكون شارة حسنة يتقلدها أتباع المصلوب.[50]

4- الانخراط في التدبير الإلهي والالتحام بمسار حياة المسيح.

ج- الممارسة:

تتمحور الممارسات التي يقوم بها خادم هذه الفريضة في ثلاث درجات:

1- الصلاة الافتتاحية: وغايتها تقديم الشكر لله لأجل بذله ابنه الوحيد لأجل الخطاة والتوسل إلى الله أن يهيئ قلوب المشتركين، وأن يكرس العنصرين بالكلمة والصلاة لأن الخبز والكأس لا يحملان في ذاتهما إشارة إلى جسد المسيح ودمه، وإنما يصيران كذلك عند تخصيصهما لهذه الغاية بالكلمة والصلاة.[51]

2- كسر الخبز وفيه إشارة إلى جسد المسيح المكسور.[52]

3- توزيع العنصرين وتناولهما اقتداء بالمسيح الذي بعد أن بارك الخبز وكسره ناوله للتلاميذ قائلاً "خذوا كلوا"، وكذلك بعد أن بارك الكأس أعطاهم قائلاً "أشربوا منها كلكم".[53]

---

[48]- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، المصدر السابق، ص 498

[49]- حسن القرواشي، **مدخل إلى تاريخ المسيحية**، ص 55

[50]- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، م. ن، ص 498

[51]- م. ن، ص 498

[52]- م. ن، ص 502

[53]- م. ن، ص 503

*** العشاء وموقف ابن عاشور:**

لم يحظ هذا السرّ بالذكر، ويعود ذلك حسب رأينا إلى الأسباب نفسها التي ثنت ابن عاشور عن الحديث عن سرّ العماد كما سبق أن ذكرنا، إضافة إلى سبب ثالث يمكن أن يكون له تأثير في ذلك، والمتمثل في طبيعة علاقة العشاء بمسألة موت المسيح فإذا كان الخبز يرمز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه داخل منظومة عقدية رأت أنّ المسيح قد صلب فعلاً ومات حقًا وعاش ألم الصلب، فإنه في المقابل تفقد هذه المقدسات رمزيتها بمجرد التعامل معها داخل منظومة عقدية مغايرة تنفي حادثة الصلب عن المسيح.

و لكن ألا يعتبر تهميش مثل هذه الأساسيات من أسرار الديانة المسيحية تشويهًا لها لا تقبله العقلية العلمية الحديثة؟

وقد يكون المبرّر الوحيد الذي يستند إليه هو عدم ذكر القرآن الكريم لتلك المسائل، ونحن نعلم ما يمثله بالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية "أنه معيار كل الحقائق".

خاتمة:

ما نخلص إليه من خلال هذه القراءة للطقوس المسيحيّة في تفسير ابن عاشور للقرآن أنّ الصورة التي عمل صاحبنا على تقديمها لا تتقاطع والأصل إلاّ في مستوى الاسم، فلا يمكن الحديث عن طقوس مسيّحيّة وإنما عن عمليّة أسلمة للديانة المسيحيّة، فغاب الفكر النقديّ الحرّ وحضر الفكر الدينيّ بكامل حُلّته.

قائمة المراجع:

- ابن عاشور (محمد الطاهر)، **التحرير والتنوير**، ط1، الدار التونسيّة للتوزيع والنشر والدار الجماهريّة للنشر والتوزيع والإعلان (د-ت).
- **الكتاب المقدّس**، ط4، 1988
- شرفي (عبد المجيد)، **الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/ العاشر**، ط1، الدار التونسيّة للنشر والمؤسسّة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، تونس الجزائر 1986
- المسعودي (حمادي)، **فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي**، مسكيلياني للنشر، ط1، 2007
- الخضري (حنّا جرجس)، **تاريخ الفكر المسيحي: يسوع عبر الأجيال**، دار الثقافة القاهرة، سنة 1981
- الأستاذ حداد، **مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحيّ**.
- كارين آرمسترونغ، **الله والإنسان على امتداد 4000 سنة من ابراهيم الخليل حتّى العصر الحاضر**، ترجمة محمد الجورا عن دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، طبعة أولى، سنة 1996
- ناصف عصام الدين حفني، المسيح في مفهوم معاصر دار الطليعة بيروت ط 1، سنة 1979
- حسن سعيد جالو، المسلمون بين الحاجة إلى الحوار مع الذات ومع الآخر، **مجلة الحياة الثقافية**، السنة 30 العدد 161 جانفي 2005
- القرواشي (حسن)، **مدخل إلى تاريخ المسيحية**، جامعة الزيتونة، ط1، سلسلة دراسات عدد28، تونس، 1998.
- القس أندراوس واطسون والقس ابراهيم سعيد، **شرح أصول الايمان**، ط 4، دار الجيل للطباعة.
- Couchoud (P-I), Le dieu Jésus, Paris,1951
- Duquesne(Jaques), Dictionnaire de la théologie chrétienne, éd Albin,Paris,France.
- Révue de la théologie et philosophie n°120, 1988

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

الهاتــف : 50 04 73 37 5 212+

الفاكس : 08 04 73 37 5 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com